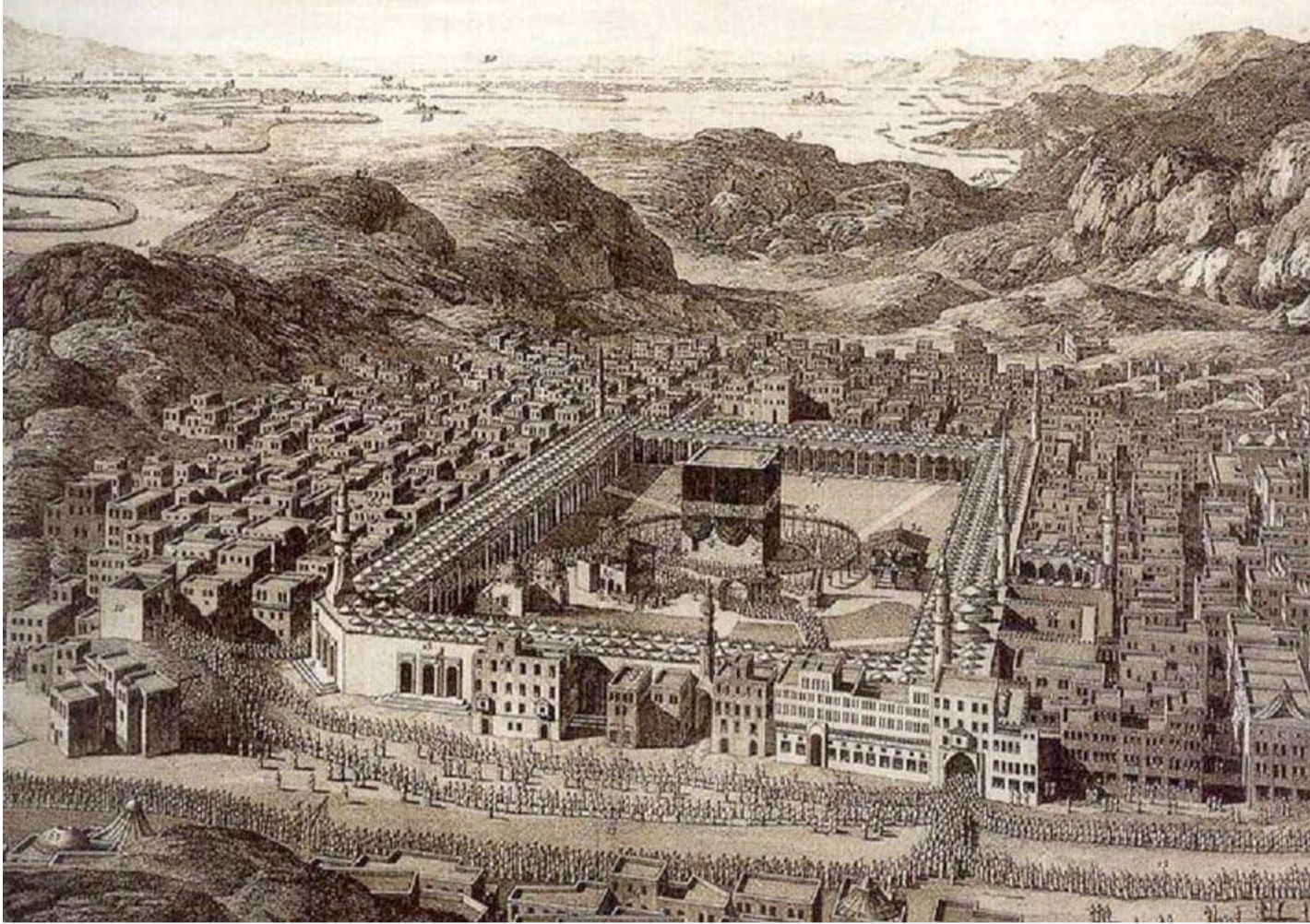


وفاة أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها

إعداد: رياض عواد

شهر رمضان المبارك هو شهر الفتوحات والأحداث الجسام في تاريخنا الإسلامي.. وهذه الحلقات نحاول خلالها إبراز أهم الأحداث التي وقعت في هذا الشهر الكريم تلك الأحداث كثيرة ومتنوعة، ما بين معارك إسلامية فاصلة وفتوحات وأحداث إسلامية مهمة تتعلق بمولد أو وفاة أعلام المسلمين، فنعيش خلال الحلقات القادمة مع بعض تلك الأحداث والفتوحات لنقتفي آثارها ونتمسك خطاها.



توفيت خديجة بنت خويلد بعد وفاة عم النبي أبو طالب بن عبد المطلب بثلاثة أيام وقيل بأكثر من ذلك، في شهر رمضان قبل الهجرة بثلاث سنين عام 619م، ولها من العمر خمس وستون سنة، وكان مقامها مع رسول الله بعدما تزوجها أربعا وعشرين سنة وستة أشهر، ودفنها رسول الله بالحجون ولم تكن الصلاة على الجنائز يومئذ، وحزن عليها النبي ونزل في حفرتها، وتتابع على رسول الله بموت أبي طالب وخديجة المصائب لأنهما كانا من أشد المعضدين له المدافعين عنه، فاشتد أذى قريش عليه حتى نثر بعضهم التراب على رأسه وطرح بعضهم عليه سلى الشاة وهو يصلي، وسمى العام الذي مات فيه أبو طالب وخديجة بعام الحزن، ولم ينس رسول الله محبته لخديجة بعد وفاتها وكان دائما يفتي عليها ولم يتزوج عليها حتى ماتت إكراما لها، وقد كانت مثال الزوجة الصالحة الوفية، فبذلت نفسها ومالها لرسول الله وصدقته حين نزل عليه الوحي.

قال ابن حجر العسقلاني «ومائت على الصحيح بعد المبعث بعشر سنين في شهر رمضان، وقيل: بثمان، وقيل: بسبع، فأقامت مع الرسول خمساً وعشرين سنة على الصحيح، وقال ابن عبد البر أربعة وعشرين سنة وأربعة أشهر، وسياتي من حديث عائشة ما يؤيد الصحيح في أن موته قبل الهجرة بثلاث سنين، وذلك بعد المبعث على الصواب بعشر سنين»، وقال بدر الدين العيني «وكانت وفاتها بعد وفاة أبي طالب بثلاثة أيام

وكانت، وكانت، وكان لي منها ولد» [1] لقد عاشت هذه المرأة العظيمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة وعشرين عاماً متصلة، وهذه أطول مدة عاشتها زوجة من زوجاته صلى الله عليه وسلم معه، ولم تنقل كتب السيرة في هذه المدة الطويلة أي خلاف حدث بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا قبل البعثة ولا بعدها، فلم نسمع عن غضب أو هجر: بل لم تُر طلباً لطلبته خديجة رضي الله عنها لنفسها! لقد عاشت لرسول الله صلى الله عليه وسلم، تُؤازره في أخرج أوقات، وتُعينه على إبلاغ رسالته، وتُهون عليه الصراع الذي دار مع كفار مكة، وتؤاسيه بمالها ونفسها، وتُجاهد معه بحق كجهاد الرجال أو أشد.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشعر بمعاناتها، ويرى تضحيتها، ويُقدر صبرها على ابتلاءاتها؛ خاصة في سنوات العشر الأخيرة، وهي سنوات النبوة: فقد مرت خديجة رضي الله عنها بأصعب ظروف يُمكن أن تمر بها زوجة! كانت تعيش لحظات الخوف والترقب والقلق على زوجها صلى الله عليه وسلم، وكان قلبها يعتصر السأم وهي تراه -وهو أكرم الناس- يعود إليها وقد سخر منه سفيه، أو تعدى عليه كافر، وكانت تسمعهم وهم يصفونه بالكفون والكذب وهو عقل البشر وأصدق الخلق، وكان يعود إليها وقد نثر أحدهم التراب في وجهه أو سُخِبت رأسه، فلا تملك عندها إلا العبرات، وسمعت غير مرة عن محاولات قتله، فباتت الليلي وجلة، لا تدري من أين تأتي المصيبة، وشهدت موت ولديها الذكور القاسم وعبد الله، وسمعت الكفار يُشتمون في أبيهما صلى الله عليه وسلم ويُلقونه بالأنثى، ثم ختمت حياتها بثلاث سنوات كاملة محاصرة في الشَّعب مع زوجها وأهله، ترتفع أصوات أطفالها من الجوع، ولا تملك لهم شيئاً، ونسبت في هذه السنوات أيام غناها وثرورتها؛ فقد ذهب المال كله خدمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ورعاية للإسلام وأهله، ويوم مات لم يرث رسول الله صلى الله عليه وسلم منها شيئاً؛ فقد أنفقت ماله كلَّه في سبيل الله!

شاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ذلك وعابشه؛ لذلك كان من المحال أن ينساها، وكان من المحال كذلك أن يُقدم عليها أحدًا، وعندما نضع هذه الخلفيات في أذهاننا، ونتفهم هذه التضحيات التي ذكرناها نُدرِك تفسير كثير من المواقف التي روتها عائشة رضي الله عنها، وهي تصف حب رسول الله صلى الله عليه وسلم لخديجة رضي الله عنها، وكون هذه الروايات تأتي عن طريق عائشة رضي الله عنها له دلالة الخاصة؛ حيث أنه من المعروف أن عائشة رضي الله عنها كانت أحب الناس إلى قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يبيد لعائشة رضي الله عنها حبه لخديجة رضي الله عنها بهذه الصورة، فهذا من باب أولى يحدث مع كل نسائه صلى الله عليه وسلم، وهو دليل على أن خديجة رضي

الله عندها كانت الأقرب إلى قلبه، وأنه لم يذكر أن عائشة رضي الله عنها أحب الناس إلى قلبه إلا بعد وفاة زوجها (رضي الله عنها) تزوجت السيدة خديجة (رضي الله عنها) من رسول الله (صلى الله عليه وآله) في العاشر من ربيع الأول، وقد كتبت عن زواجها مقصلاً في مناسبة يوم العاشر من ربيع الأول، فراجع.

أولادها (رضي الله عنها) اختلفت الأقوال في عدد أولادها من رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ولكن من المسلم أن القاسم والسيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) منها (رضي الله عنها)، والقاسم قد توفي في حياة النبي (صلى الله عليه وآله)، وبه يكفي.

صفاتها (رضي الله عنها) كانت السيدة خديجة (رضي الله عنها) امرأة حازمة لبية شريفة، ومن أوسط قريش نسباً، وأعظمهم شرفاً، وأكثرهم مالاً، وقد كانت أزرت زوجها رسول الله (صلى الله عليه وآله) أيام المحنة، فخفف الله تعالى عنه بها.

وكان (صلى الله عليه وآله) لا يسمع شيئاً يكرهه من مشركي مكة من الرذ والتكذيب إلا حَقَّقته عنه وهونته، وبقيت هكذا تسانده حتى آخر لحظة من حياتها.

مكائنها وفضلها (رضي الله عنها)

للسيدة خديجة (رضي الله عنها) مكانة ومنزلة عالية يغيظها عليها الملائكة المقربون، حتى أن جبرائيل (عليه السلام) أتى إلى النبي (صلى الله عليه وآله) فقال: (يا محمد هذه خديجة قد أتتك فأقارها السلام من ربها، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نَصَب)، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (يا خديجة، هذا جبرائيل يُقرئك من ربك السلام)، فقالت خديجة: الله السلام ومنه السلام وعلى جبرائيل السلام وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله (صلى الله

عليه وآله): (خير نساء العالمين أربع، مريم ابنة عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد) وعن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا أربع: آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد).

إنفاقها (رضي الله عنها) قد أنفقت السيدة خديجة (رضي الله عنها) أموالها

في أيام تعرُّض المسلمون للاضطهاد والحصار الاقتصادي، الذي فرضه مشركو مكة، حتى أن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (ما غرث على أحد من نساء النبي (صلى الله عليه وآله) ما غرث على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فر بما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا إلا خديجة! فيقول: إنَّها كانت، وكان لي منها الأولاد) وفي رواية عن عائشة

قالت: (كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) إذا ذكر خديجة لم يكن يسام من فناء عليها والاستغفار لها، فذكرها ذات يوم واحتملتي الغيرة إلى أن قلت: قد عوضك الله من كبيرة السن.

قالت: فرأيت رسول الله (صلى الله عليه وآله) غضباً سقط في جلدي، فقلت في نفسي: اللهم إنك إن أذهبت عني غضب رسول الله (صلى الله عليه وآله) لم أذكرها بسوء ما بقيت، فلما رأى رسول الله (صلى الله عليه وآله) غضباً يوماً فقال: (أغضبتك يوماً فقال: (صلى الله عليه وآله): إنِّي رزقتُ حنْياً).

حزنها (رضي الله عنها) كان حزن خديجة (رضي الله عنها): بسم الله الرحمن الرحيم، يا الله يا حافظ يا حفيظ يا رقيب.

وهناك حزن آخر لها (رضي الله عنها): بسم الله الرحمن الرحيم، يا حي يا قيوم، برحمتك استغيث فأغثني، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً، وأصلح لي شائي كله.

مكانة خديجة (رضي الله عنها) مقبرة الحجون في مكة المكرمة، ونزل رسول الله (صلى الله عليه وآله) في حفرتها، ولم تكن يومئذ سنة صلاة الجنائز حتى يصلي عليها.

مدة عمرها (رضي الله عنها 65 سنة)

وصاياها لرسول الله (صلى الله عليه وآله) لما اشتد مرض السيدة خديجة قالت: يا رسول الله اسمع وصاياي: فاعفني يا رسول الله، قال (صلى الله عليه وآله): حاشا وكألاً، ما رأيت منك تقصيراً، فقد بلغت جهدي، وتعبت في داري غائبة التعب، ولقد بذلت أموالك وصرفت في سبيل الله مالك.

ثانياً: أوصيك بهذه وأشارته إلى فاطمة، فأبها يتيمه غريبة من بعدي، فلا يؤذيها أحد من نساء قريش ولا يلطمن خذها ولا يصيحن في وجهها ولا يربئها مكروهاً.

ثالثاً: إنِّي خائفة من القبر، أريد منك رداءك الذي تلبسه حين نزول الوحي تكفنتي فيه، فقام النبي (صلى الله عليه وآله)، وسلّم الرداء إليها، فسرت به سروراً عظيماً، فلما توفيت خديجة أخذ رسول الله (صلى الله عليه وآله) في تجهيزها وغسلها وحطها فلما أراه أن يكفنها هبط الأمين جبرائيل وقال: يا رسول الله، إن الله يفرئك السلام ويخصك بالتحية والإكرام ويقول لك: يا محمد إن كفن خديجة من عندنا، فأبها بذلت ماله في سبيلنا، فجع جبرائيل بكفن، وقال: يا رسول الله، هذا كفن خديجة، وهو من أكفان الجنة أهده الله إليها.

فكفنها رسول الله (صلى الله عليه وآله) برداءه الشريف، أولاً، وبما جاء به جبرائيل ثانياً، فكان لها كفنان: كفن من الله، وكفن من رسوله

